نقد وتعليق

توحيـــد المذاهب

اطلعت على جواب الشيخ أحمد عطية ، أحد قضاة الكويت على الأســئلة التى وجهتها « البعثة » نشرة بيت الكويت الثقافية ، فى عددها الأول من السنة الثانية ، عن إيجاد المعهد الدينى ، ولقد أحسن وأجاد بما أفاد عن إنشاء المعهد غير أنه قال : « حبذا لو قام المعهد الدينى على أساس وحدة الرأى ونبذ الخلافات المذهبية التى هى علة العلل ، لما ينشأ عنها من أمور قد تؤدى إلى نظام لا يعود على المجتمع إلا بالأضرار البالغة التى لا يزال يعانى نتائجها كل من حاول الإصلاح الدينى »

فعندما أكملت العبارة وجمت ملياً متفكراً وقلت : ماذا يقصد الأخ بهذا الخلاف ؟ . هل هو الخلاف بين أهل المذهب نفسه ، أو يقصـــد الخلاف بين المذاهب الأربعة، ويريد توحيدها على مذهب واحد، وكلا القصدين محتمل ؟ . فإن أراد الأول فغير خاف على أهل المعرفة من العلماء ما عليه أهـل المذاهب من الاصطلاحات التى تكفلت لأهل هذا المذهب بعدم الضرر من جميع الجهات التى يقصدها أو يظنها صاحب الفضيلة ، وإن أراد الثانى فهذا أغرب لأن المذاهب الأربعة هى التى حفظت حقوق العباد وسدت أبواب التلاعب فى وجوه الجهال الذين يدعون المعرفة بالعلم الشرعى فى رواية ودراية . والدليل على ذلك الشروط المدونة ما بين أهل المذاهب الأربعة ، ويعرف هذا من دروس الفقه وأخذه عن أهله ويكفى على نقض جواب الأخ ما اتفق عليه الأئمة الاربعة ، رحمهم الله تعالى مراعاة للخلاف وإزالة للضرر من أن حكم الحاكم يرفع الخلاف ، قل لى بربك ، ما هذه الكلمة التى يجب أن تكتب بماء الذهب ، هل هى علة العلل كما قلت أم هى التى تعود على المجتمع بالاضرار كما نسبت ؟ . والأئمة الاربعة مؤسسة مذاهبهم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والإجماع والقياس ، مع اتفاقهم تلك العصور الطويلة ، والخلاف فى فروع الدين غير مذموم ، وإن ذلك من موارد الاجتهاد ، والذى ذكر أهل العلم أنه لا إنكار فى مسائله لوجوده فى الصدر الأول ، وعدم إنكار بعضهم على بعض فى ذلك ، وهذا هو الذى يجمع شمل الامة ، ويلم شعثها ، ويقوى رابطتها الدينية .

وإن وجد خـــلاف وتحزب أو غير ذلك فلا ينسب إلى المذاهب حاشا وكلا ، بل ينسب إلى المنتسبين إلى أهل المذهب فى هذا الزمن ، مع قلة بضاعتهم ، وعدم معرفتهم ، لذلك حصل ماحصل من التفريط والتخليط حتى ظن من لا دراية له بعلم الفقه وما اشتمل عليه فى الاصول والفروع وغرائب المسائل التى لا يستطيع كثير ممن يدعى العلم حلها دون أن يأتى بمثلها ، أن سبب ذلك المذاهب ، ولكن يعرف هذا من درس الفقه وعلم راجحه ومرجوحه ومطلقه ومقيده ، وما عليه الفتوى من كتبه المعتمدة فى مذهبه ، أما من لم يعرف ذلك ولم يطلع على روايته ولم يعلم أن اختلافهم رحمة فيحق له أن يقول ما يريد فى أئمة الفقهاء الذين تدور على مذاهبهم الفتيا فى أمصار المسلمين وأعصارهم مع اتفاقهم على جلالة قدرهم وأهليتهم للاجتهاد ، ولتوفر شروطه فيهم ومعرفتهم التامة بالقرآن ومعانيه وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وأمثاله ، وغير ذلك مما أقدرهم على تدوين مسائل الفقه وأساليبه العجيبة التى لا يقدر عليها من لم يكن له حظ وافر فى العلم . . لهذا تراه يتتبع الرخص والأقوال الشاذة ليتعذر فى تهجمه على المذاهب التى أجمعت الامة الإسلامية عليها، وهم القدوة فى تأويل ما أولوه واستخراج ما استنبطوه، ولأنهم جمعوا ثلاثة أشياء : العلم الكامل ، والورع الشامل ، والنظر السديد وغلبة الإصابة .

ويكفيهم فخراً إذ دخلوا فى ضمن ثناء النبى ﷺ بقوله : خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم - وفى رواية ثم الذين يلونهم . فمن ترك الأئمة الداخلين فى شهادة خير البرية بالأفضلية ، وهم هداة الخلق إلى الحق ،

من وقتهم إلى يومنا هذا ، وإلى الأبد إن شاء الله تعالى : إذ قام احتهادهم مقام نصوص الشارع فى وجوب العمل به ، لقوله تعالى « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ومعلوم أن الاستنباط من مقام المجتهدين رضى الله عنهم . فهو تشريع عن عن أمر الشارع ، مع أن وجود المذاهب الأربعة ، رحمة للأمة المحمدية ورفع حرج عنهم لقوله تعالى « وماجعل عليكم فى الدين من حرج » ومن هنا يعلم أن أهل زماننا لو تخلوا عن كتب المذاهب للأئمة الأربعة وأتباعهم لضاقت بهم الحال ، ومن أين يأتون بفصول وفروع إلا من كتب المذاهب من جميع الأحكام الشرعية ؟ . فتراهم يستفيدون من كتبهم ، وينكرون فضلهم ، ويدعون بدعوى لاطائل تحتها سوى مخالفة الاجماع ، والإجماع حجة ، ومخالفته حـــرام وقد حفظ الله هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة . وفقنـــا الله للانتفـاع والاتبـاع وجنبنا موارد الضلال والابتـداع وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ؟

أحمد بن خميس الخلف

كسل

يطالبون بإنشاء صحف أدبية لتبعث المقبور من أدبنا الكويتى القديم ، ولتجدد فى إنتاجنا الثقافى الحاضر ، ولو عرفوا سبب هذا الفتور الذى اعترى أدبنا لأدركوا أن مصيبتنا هى نوم أدبائنا ، وأن هـــذا القحط الأدبى قد نتج فى الواقع عن تكاسل مثقفينا عن عاصروا الجيل الماضى ، وأنت تدرك بلا شك قيمة الماضى فى مثل هذه الشئون ، فعليه وحده تقوم الأسس ومنه تنمو الجذور ، وبدونه لا يمكن ابتكار فى الانتاج الأدبى فجأة .

لقد كان فينا شعراء وكتاب بلغوا من الجودة والاتقان شوطاً بعيداً ، ولكن العجيب فى أمر أولئك وهؤلاء أنهم يحيلون أنفسهم على التقاعد مبكرين ، فلا تسمع لأحدهم باكورة إنتاجه حتى يطويه الخمول فى حنايا النسيان ، وإذا بذلك الشاعر أو الناثر كأنه لم يكن قط .

شىء واحد استلفت نظرى فى أولئك الكتاب والشعراء هو أنهم كلهم أو جلهم استهوتهم الوحدة فانكمشوا على أنفسهم يجترون ما قالوا ، واعتزلوا الناس واستمرأوا طعم الكسل ، فهم كلما مرت بهم الأيام كلما أمعنوا فى الخمول .

أيها الأدباء : يتحتم أن يكون لكم ضمائر حية ، ونفوس قوية ، وإن فى ذمتكم دين الثقافة من أدب وفن ، فما يجوز أن تموت معكم ، لأنها إرث المواطنين . وإنكم لتعلمون أن الأدب فن قائم بذاته مستقل بنفسه ، وفيكم من الاستعداد ما يكفل لنا إنتاجاً أدبياً لا بأس به ، وكتمان العلم مثل كتمان الشهادة ، إفلاس فى الذمة وهوان فى النفوس . وبدونكم لا نستطيع أن نفعل شيئاً ، وذلك لأن الكتابة ، كما تعلمون ، موهبة وطبع ، وليست تركيباً وصناعة ، فعليكم أن تنتجوا ، لأنكم أحرياء ألا تهابوا الابتداء ، فقد كانت لكم يد فى الشعر والنثر . فكونوا أئمة يأتم بكم من من يريكم المطلع ويخشى على فتوته صولة النقد الأدبى .

ابن العاقول